

السخرية في الخطاب النقدي الجزائري المعاصر -محمد الهادي الحسني أنموذجا-

د. فيصل كوريفة

جامعة علي الونيسي – البليدة 02- (الجزائر)

faycalmammar88@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/12/31

تاريخ القبول: 2019/12/25

تاريخ الإرسال: 2019/11/04

الملخص:

يتناول هذا البحث؛ موضوع السخرية في الخطاب النقدي عند واحد من الكتاب الجزائريين في العصر الحديث، وهو محمد الهادي الحسني، والسخرية أسلوب نقدي قديم، يتميز بإمكانات تعبيرية رهيبية، تنطوي على رغبة جامحة في إفراغ الأذى في النفس، وإيلامها نظير تمرداها على القيم وشرودها عن ذوق الجماعة. من هنا جاء هذا البحث محاولا كشف مدى قدرة السخرية على ردع المتطاولين على المجتمع ونظمه، وذلك بوصفها آلية يتوسلها الناقد الساخر لتعرية المذنبين، وفضحهم، وإبراز عيوبهم الأخذ في التكاثر؛ قصد التقويم والإرشاد إلى الأصلح. الكلمات المفتاحية: السخرية؛ الاستهزاء؛ الخطاب؛ القيم؛ النقد؛ التعرية؛ الإصلاح.

Summary:

This paper deals with the subject of ridicule in the critical discourse of one of the modern Algerian writers, Mohamed Hedi Hassani, and ridicule is an old critical method, characterized by terrible expression potential, involving a desire to empty self-harm, and pain in exchange for its rebellion against values and its displacement The taste of the congregation, hence this research attempting to reveal the extent of the irony to deter the community and its systems, as a mechanism used by the satirical critic to expose the guilty, and expose them, and highlight their growing defects ;

Keywords: irony; mockery; discourse; values; criticism; erosion; reform.

1. مقدمة:

تضطلع السخرية بمهمة خطيرة في الخطاب النقدي (السياسي والاجتماعي والثقافي)، كونها وسيلة تسهم بدنامية فاعلة لخدمة القضايا الانسانية، والمحافظة على النظام الاجتماعي وتماسكه، فهي تعمل على تلافي الاضطرابات الفكرية الشاردة عن قيم المجتمع، كما تنبه عن الأضرار الجمة للعيوب والمساوئ الناشئة عن التمرد على القيم الانسانية وتشعر بخطورتها، بحيث تدخل السخرية ضمن الأفعال الإنجازية بوصفها إخبارات عن أشياء يراها المخاطب الساخر على غير وفاق وأطر المجتمع وقوانينه النازمة لعلاقة الفرد بالجماعة.

يُساق خطاب السخرية سوقا رقيقا مستوفيا شرائط التعبيرات البليغة، بحيث يعتمد الناقد الساخر إلى استصحاب مع الألفاظ المألوفة؛ المعاني غير المألوفة لدى الهأزئ به، وجعلها تقع من ذهنه موقعا مؤذيا، أخذا تفرع سمعه متمكنة منه، بفعل ما اتسمت به من ألق فني وقدرة رهيبية على حبك القيم التعبيرية، وتصوير المشاهد وسرد المواقف، فالسخرية عادةً تجيء بإمكانات تعبيرية تتفجر إبانة عن رغبة جامحة في إفراغ الأذى في النفس، وإيلامها تلقاء تمرداها على القيم النازمة للمجتمع، وفضح صاحبها المتواري خلف قشة رثة.

2. تعريف السخرية:

1.2. السخرية في القرآن العظيم:

الناظر في خطاب الباري تعالى؛ يجد أن طائفة من الآيات البينات منه، قد انتظمت معنى السخرية، وذلك في مواضع متفرقة، حيث جاءت على أشكال مختلفة، فهي تفيد معنى الاستهزاء تارة، وأحيانا أخرى تفيد معنى الضحك، كما أنها أفادت أيضا معنى التفكه، وتجيئ في القرآن لتفيد معناها الحرفي (المعجمي).

وردت السخرية في القرآن بمعنى الاستهزاء خمس عشرة مرة¹، منها قوله تعالى: "ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون"²، فالاستهزاء ههنا "مرادف للسخرية في كلام أئمة اللغة"³، وكثيرا ما يكون التلازم قائما بين الاستهزاء والسخرية في آية واحدة للدلالة على أن معناهما واحد.

جاءت لفظة السخرية في القرآن لتفيد معنى الاستهزاء المفضي إلى الضحك، قال تعالى: "فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون"⁴، فالسخرية تفيد هنا معنى الاستهزاء "لأن ما بعدها أليق لها لقوله تعالى: "وكنتم منهم تضحكون"⁵ ولا بد أن الاستهزاء مدعاة للضحك مفضي إليه.

وردت السخرية بمعنى الغمز والفكاهة، وهي أفعال تتأدى إلى الضحك بقصد السخرية والاستهزاء، يقول الله تعالى: "وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين، فالיום الذين ءامنوا من الكفار يضحكون"⁷ بمعنى "ملتذين بذكرهم والسخرية منهم"⁸ والاستهزاء بحالهم لأنهم اختاروا ديناً غير دين آبائهم، لذا فهم يعتقدون أنهم على ضلال.

وتجيئ السخرية لإفادة معناها الحرفي كما في قوله تعالى: "بل عجب وتيسخرون وإذا ذكروا لا يذكرون وإذا رأوا آية يستسخرون"⁹ لفظة السخرية جاءت للدلالة على المعنى الذي وضعت له في الأصل، فلا جرم أن معناها هنا "بل عجب من قدرة الله تعالى على هذه الخلائق العظيمة وإنكارهم البعث وهم يسخرون من تعجبك وتقريبك للبعث"¹⁰ أو أنهم "يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها"¹¹ وعليه أفادت السخرية في هذه الآية معناها المركزي (المعجمي).

2.2. السخرية لغة:

هي مصدر للفعل سَخِرَ، تقول: سَخَرْتُ منه أَسْخَرْتُ منه سَخَرًا سَخَرًا بالتحريك وَمَسَخَرًا وَسُخْرًا بالضم، قال الأخفش: سَخَرْتُ منه وسَخَرْتُ به وضحكت منه وضحكت به، وهزئت منه وهزئت به¹²، وسَخَرَ فلان سُخْرَةً وَسُخْرَةً ويضحك منه الناس ويضحك منهم¹³، وسَخَرَ منه وبه سَخَرًا وسَخَرًا ومسخرًا وسُخْرًا بالضم وسُخْرَةً وسُخْرِيًا وسُخْرِيًّا وسُخْرِيَّة: هزئ به، والسُخْرَةُ: الضحكة، ورجل سُخْرَةٌ يسخر بالناس، وفي التهذيب يسخر من الناس، وسُخْرَةٌ يسخر منه وكذلك سُخْرِيٌّ وسُخْرِيَّة¹⁴.

الملاحظ أن المعنى الذي أمدته المعاجم اللغوية لكلمة (سخرية) يلفه قد أفاد معنى الاستهزاء بقصد الأذية والضحك مع نية الحط من قدر المستهزئ به، والعمل على إحداث التوتر والألم في النفس حتى تضطرب وتنفعل بشدة.

2.3. السخرية اصطلاحاً: لمفهوم المصطلح ارتباط وثيق بما أمدته المعاجم اللغوية من دلالات ومعاني للمادة التي كانت نواة لنحت أول مرة، فالمعنى الاصطلاحي لمصطلح ما؛ ليس سوى امتداداً للمعنى المعجمي، ومفهوم السخرية ليس بدعاً مصروحاً عن هذه القاعدة.

إن السخرية في الفكر اليوناني القديم "كانت وصفاً للأسلوب في كلام إحدى الشخصيات بالملهاة اليونانية القديمة المسمى بـ"إيرون-eiran"، وكانت هذه الشخصية تتميز بالضعف والقصر مع الخبث والدهاء، كما كانت دائماً تتغلب الألازون-alazon- الفخور الأحمق، وذلك عن طريق الخداع وإخفاء ما يمتاز به من قدرة وذكاء، وبقي المصطلح الأوربي يحتفظ بذلك المعنى...وقد تمتد السخرية بهذا المعنى إلى مواقف هزلية تبعث على الضحك"¹⁵ والاستهزاء، بحيث يعمل الخطيب الساخر على شحن العبارة بالدلالات والمعاني التي من شأنها تعرية المستهزأ به وفضحته أمام الأَشْهاد وجعله ينضغط تحت وقعها الأليم جزاء وفاقاً على خُرْقه.

ورد مفهوم السخرية على أنها "1- نوع من الهزاء، قوامه الامتناع عن اسباغ المعنى الواقعي أم المعنى كله على الكلمات، والايحاء عن طريق الأسلوب، وإلقاء الكلام، بعكس ما يقال.

2- تتركز السخرية أصلاً على طريقة في طرح الأسئلة مع التظاهر بالجهل وقول شيء في معرض ذكر شيء آخر، وقد اعتمد سقراط هذا المنهج في جدله الفلسفي، فكان يفحم مناظريه، ويستدرجهم إلى الاقرار بما يريد منهم، واقحم أرسطو السخرية في أبواب البلاغة وحددها بقوله؛ إنها الدلالة على الأشياء بأسماء أضدادها.

3- (أدبياً) برزت السخرية في كثير من الآثار الأدبية، وعني بها عدد كبير من الكتاب والشعراء واتخذوها أسلوباً في الابانة عن آراء أو مواقف خاصة تتناول الناس أو قضايا الحياة"¹⁶ يتضح من خلال ما سبق؛ أن السخرية هي أسلوب متميز يتخذ من الدلالة الإيحائية مقوماً رئيساً في التعبير، حيث يعتمد الخطيب في كلامه إلى سوق معنى الشيء بما يناقضه تعبيراً عن موقفه إزاء قضية من القضايا.

وعرف المناوي السخرية بأنها "استزراء العقل معنى بمنزلة الاستنخار في الفعل حساً، ذكره الحرالي، وقال ابن الكمال: السخرية والهزاء من شيء بحق عند صاحبه ولا يحق عند الهازئ"¹⁷، فالسخرية ها هنا منعى خطابي يروم التأثير في العقل عن طريق الاستهزاء والتحقير كما تتأثر الأشياء بالأفعال الحسية التي تأتي عليها.

والسخرية في البلاغة هي "طريقة في الكلام يعبر بها الشخص عن عكس عما يقصده بالفعل، كقولك للبخیل: "ما أكرمك"، وهناك صورة أخرى للسخرية هي التعبير عن تحسر الشخص عن نفسه كقول البائس: "ما أسعدني"، ويلاحظ أن الغرض من السخرية يكون هجاء مستورا أو توبيخاً أو ازدراء"¹⁸، والساخر إذ يضخ خطابه

بالمثالب والنقائص عامداً إلى الدلالات اللاحائية بنية الاستهزاء ممن رآه استمراً الضلال والسخرية من فعالة، كونه عدل عن المشترك بينه وبين مجتمعه، وأخذ يخلع على نفسه حلالاً من الهوان والضعفة والانصهار في غيره، فلا غرو أن السخرية بهذا المعنى إشعار الخصم بأنه هدف لائقاً للخطاب الذي يتخذ الاستهزاء والتفكه مادته، يكون ذلك عن طريق الإشارة والتلويع، كون اللاحاء أشد وقعاً من التصريح.

3. السخرية واتجاهاتها النقدية في خطابات محمد الهادي الحسني:

تظل الدلالة اللاحائية؛ هي السمة المميزة للسخرية بوصفها خطاباً نقدياً أبدعته قدرة تعبيرية هائلة، ضخت فيه أفكاراً ومقاصد مختلفة، حيث بثت في أفاضله حياة جديدة خلعت عليها دلالات خلاف الأصل، والناقد الساخر إذ يمد خطابه بهذه العناصر الحجاجية لكيما ينقض تصورات الخصم للحياة، على أن السخرية ليست فعلاً نقدياً ينصب على موضوع واحد، أو يحاول معالجة فكرة أو قضية من القضايا، بل هي خطاب يتسم بالشمول والاستغراق، بحيث ينتظم أفكاراً وقضايا شتى، يتناولها كل ناقد ساخر من منظوره الخاص، فلا جرم أن "السخرية من شخص غير السخرية من مفهوم، ولهذا تكتسب السخرية نوعاً من الرؤية الفكرية، أو لنقل إنها الطرح الفكري ذاته، من خلال توضيح أخطاء الوضع الذي هو هدف السخرية"¹⁹ فالخطيب الساخر لا يروم الهزء بقدر اهتمامه بتصويب الخطأ وإقرار الحق في نصابه من خلال اسناد الوضع بمقومات الوجود واصباغه بقيم المجتمع، والعمل على توجيهه نحو الكمال المنشود.

1.3. الاستهزاء والسخرية في معرض التوضيح والبيان: السخرية أسلوب نقدي يجنح فيه الساخر إلى فضح

الساخر منه وتعرية فداحة ما يأتي من أخطاء، وانحرافه عن قيم المجتمع، هذا ما يلفه المتلقي في كتابات محمد الهادي الحسني النقدية، ففي مقال له بعنوان: "الشيء من مصدره لا يستغرب" راح الناقد يسوق حدثاً جرى له، وبكفاية فائقة جعل المتلقي يتابع أطوار الحوار من كذب، حيث طفق يتفنن في سرد وقائع الحدث "التقيت واحداً من معارفي الأقدمين، فسلم وسلمت، وحيا وحييت، واطمأن عن الحوال واطمأننت، ثم رسم على شفثيه ابتسامة "باردة" كما يقول الانجليز، أو "صفراء" كما نقول نحن، وقال: إن الناس يتساءلون ويستغربون ..، فقلت: "عم يتساءلون؟"²⁰، ومم يستغربون؟"²¹، فأول صورة رصدها محمد الهادي الحسني لكيما تكون محط رجال سخريته؛ هي تلك الابتسامة التي بدت له "باردة" في الثقافة الانجليزية، ثم سرعان ما استدرك الأمر وأرجعها إلى بيئتها فأعاد لها اصفرارها!

ثم إن محمداً بوصفه مرجعاً في الثقافة الاسلامية والأدب، فإنه لم يأل جهداً في سبيل نشرها -الثقافة الاسلامية- والدعاية لها في كل موقف، يتضح ذلك من خلال جعلها توكأة في نقده الساخر، ففي نصه قبل قليل؛ وهو يتلقى من أحد معارفه انشغالات الناس وتساؤلاتهم عن رأيه إزاء ما يحدث في البلد من تغيرات سلبية طرأت على بنية مناهج التربية والتعليم، باشر محاوره بانشغال صير المتسائلين عن موقفه كمن تساءلوا عن البعث والنشور والجزاء والحساب، حيث عظم عليهم الأمر أن يصدقوا النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما لا تقع عليه

العين، والساحر هاهنا بحسه النقدي ساوى بين المتسائلين في العصر القديم حيث الوحي ينزل، وبين متسائلين مستنكفين عن هذا الوحي الذي نزل.

للناقد الساحر أسلوب متميز في بسط فكرته، والتعبير عن رأيه إزاء بعض المواقف وقضايا الحياة، وحتى تكون فكرته إلى الفهم أقرب؛ يعتمد إلى الموازنة بين الجيد والردىء، والمحاسن والمساوئ والمواقف الرصينة والنزقة، ذلك أن "التقابل الدلالي إنما يتم داخل الضرورات القيمة التي يفرضها العنصر التأثيري"²² ومن ثم يعمل على تبيان فداحة التحول عن الفطرة الانسانية والقيم الجامعة، باذلا جهده في سبيل التنبيه على خطورة هذا التحول المريب، والسخرية بوصفها خليطا من "العذوبة والمرارة، عذوبتها تكمن في الطرافة ومرارتها تتجلى في الانتقاد"²³ الذي ينساب واقعا في أعماق النفس، مثيرا فيها اضطرابا وألما، يدعوها إلى الاعتدال والانسجام وقيم المجتمع، ففي معرض تنبيهه عن المخاطر الوافدة على بيئة الناقد حيث أضحت تهدد بنية المجتمع وتماسكه؛ طفق محمد يبين ساحرا من الأوضاع التي آلت إليها قيم الرجولة! لقد أفزعه الواقع القائم على جرف هار يكاد يهوي من عل، ولكيما يرتفع هذا الواقع المفزع جعل محمدا يجدد اقتراحا كان تقدم به كاتب مصري، لم يكن هذا الاقتراح سوى إدراج "مادة الرجولة" ضمن المناهج التعليمية، فقد "كان الكلام منذ أكثر من ستين سنة، أي في وقت كانت بقية من هذه المادة ما تزال تجري في دماء كثير من المصريين والعرب والمسلمين، لأن أحمد أمين توفاه الذي يتوفى الأنفس - عز وجل- في سنة 1954م، ما دفع أحمد أمين إلى اقتراح ما اقترحه إلا ما شهدته من "ضمور" هذه الرجولة في سلوك أكثر الناس وتصرفاتهم، بل حتى في مظاهرهم ما جعل الشيخ محمد أخضر السائحي - رحمه الله- يقول: "لولا الصدر لالتبس الأمر" لشيوع "التخنث" في الأمة"²⁴، واضح أن الناقد الساحر في هذا المقتبس يعتمد على ثقافته الواسعة، هذا الذي مكنه من استدعاء بعض النصوص التي تتقاطع مع رؤيته النقدية، حيث جعلها ببراعة فائقة خادمة لموضوعه، غير أن لمستته الساخرة هي الطاغية الانسجام والتماسك الذي حققه بين موقفه ومواقف نقادا آخرين، حتى لكأنها رأي ناقد ساحر واحد.

ب- مواقف ساحرة من بعض النماذج البشرية الممسوخة:

غالبا ما يطرأ على مجتمع ما؛ فساد فيريده، هذا الفساد الناشئ عن أفعال وتصرفات امتهنتها نماذج بشرية أصابها طائف من المسخ فأخذت تستهدف المجتمع في قيمه، هذا المنحى عينه؛ يتخذ الساحر مادة لنقده رجاء التقويم والاصلاح، ذلك أن السخرية هي "إحدى الخصوصيات القليلة التي تميز الانسان عن الحيوان باعتبارها تعديلا للسلوك الغريزي، فالإنسان هو وحده الذي يقلب، عن وعي، الموقف المأساوي، أو موقف الشدة إلى موقف اللامبالاة"²⁵ كونه كائنا يباشر الحياة عن وعي وإدراك لوظيفته فيها، إنها مهام كبرى رأى محمد الهادي الحسني أن من الواجب عليه الاضطلاع بها، فيها هو يفتح للمتلقي أفقا رحبة للاستمتاع برؤيته الساخرة من بعض النماذج البشرية المنسلخة عن قيمها، ففي "بداية احتلال الفرنسيين الصليبيين العنصريين للجزائر ركن إليهم أراذلنا وحثالتنا، والذين "اخلاو عروشهم على كروشهم" ومن هؤلاء كائن يسمى "ابن داود" فأنعمت عليه فرنسا - لخدماته الحفيرة لها- برتبة كولونيل، كما أنعمت على سابقه المسمى "مصطفى بن اسماعيل" برتبة جنرال، يحكى أن هذا الرذيل ذهب ليحضر حفلة رقص، فلما وصل مكان الحفلة صُدد عن الدخول، فعرف نفسه

بأنه الكولونيل بن داود، فقليل له لم عرف عن الفرنسيين من عنجهية وصلف: "العربي عربي ولو كان بن داود"، أي لا قيمة للعربي - في نظر هؤلاء الأجلاف، .. ولو كان عميلا، رذيلا، دنيئا، سافلا، وخدم فرنسا كما خدمها ابن داود وأمثاله قديما وحديثا، وهناك رواية تقول إن هذا "الكائن" نزعه عرق فأطلق رصاصة على رأسه فمات، فما بكى عليه سماء ولا أرض، ولعل المكان الذي دفن فيه لم ينبت فيه نبات منذ ضم جثمانه²⁶، فالحسني في هذا المقتبس، يسوق خطابه الساخر بأسلوب ترافقت عنده الأضداد، فتجده ينعت "بطل" الحدث بأقذع الصفات والنعوت، ثم تلفه متعاطفا معه مشفقا على حاله، وما إن استقر على هذا الموقف المثير للشفة؛ حتى انهال على خصمه يعري سوءاته وفداحة أعماله المقيتة، وفَرَّ التفاته نحو الاشفاق والتعاطف مع هذا الخؤون إبراز عنصرية الفرنسيين وتطاولهم على البشر، إن محمدا بدأ بسرد قصة جرت لأحد النماذج السيئة، وهي التي كان مثار سخرية وتحقير من قبل مستخدميه، هذا "الشيء" كما يصوره الخطيب الساخر أنه من أجل الأكل هو على استعداد لأن يأتي كل شيء نكرا، وتلقاء حقارة فعالة؛ ظفر بأنعام وأفضال من قبل فرنسا! وما إن شرع يتنعم بتلك النعم سُدَّتْ دونه أبواب الملاهي وأوصدت في وجهه، لأنه عربي! تلقف الشقي هذا الموقف بحسرة أصابته في مقتل، ويعود محمد من فوره مسترجعا ألق نقده الساخر ليثخن جراحات "ابن داود" لكيما يكون أشد إيلاما، حتى و"الرذيل" في قبره لن يدعه، بل عليه أن يخبره بأن الفلاة الذي آوى جثته التي أهدمها برصاصة الحسرة أضحى هو الآخر ميتا لا ينفث عن نبات ولا ماء، هذا الشقي ما أتعسه! لقد كان نذير شؤم على المكان والزمان.

وشيوع السخرية في الخطابات النقدية؛ هو خطوة تتأدى بالضرورة إلى صناعة الوعي ونشر المعرفة، وهي إحدى المقومات التي تسهم بفاعلية في إقرار الحق في نصابه، كونها أسلوبا يجعل تعلق الأنفس البشرية بالمهانة والصغار من النقائص التي تهبط بالإنسان دون الكرامة وقيم المجتمع النابضة بالحياة، بالسخرية "مرة سامة من الداخل، حلوة عذبة في الخارج ... وهي طريق خطر في الكتابة وليس من اليسير معرفة مدى الاهتمام المستخدم فيها لتهدة الغضب"²⁷ وعلى الرغم من أن سبر أعماقها أمر غير يسير؛ فإنها وسيلة تحرض على التأمل والاستمرار في التفكير والاستغراق فيه.

يتطلع الناقد الساخر في توسلاته اللغوية وهو يرتشف منها أعلا درجات البيان؛ لأن يجعل المغضوب عليه، في وضع، يستشعر خلاله بأس سهامه حين الكشف عن مساوئه وإبراز سقطاته المميتة، فلا غرو أن "السخرية ليست إلا وسيلة إلى هدف، فهي سلاح يراد به الطعن في شخص أو شيء معين"²⁸ ونقض رؤيته للحياة، كونها على غير وفاق وقيم الجماعة ونظامها الاجتماعي، وهذا الذي طفق يعريه الناقد محمد الهادي الحسني في خطابه الساخرة، ففي موقع آخر يصادفنا هازئا بأحد خصوم قومه حيث استمرأ الخيانة وعملوا ضد مصالح بلدهم ومجتمعهم، فهو لا يعلم "إن كان ذلك الكائن المسمى قدور بن غبريط حمل رتبة جنرال"²⁹ فالنماذج السيئة عنده مجرد كائنات لا يكتسب لأمرها ولا ينظر إلى مناصبها في دنيا الناس، ويلتفت إليهم مخافة العدو، فالكائن "بن اسماعيل" حقيق عليه "أن يطلق عليه لقب "أبا رغال الثاني" تشبها له بأبي رغال الذي كان دليل أبرهة الحبشي في سيره نحو البيت العتيق، وقد شفى المجاهدون صدورنا فأذاقوا ذلك الخائن الموت الزؤام في 1843م، ويا ليتنا نعرف الجحر الذي دس فيه، لنذهب إليه ونرجمه كما رجمت العرب قبر أبي رغال في المغمس"³⁰، إن محمد

يقترح مصرًا على أن يخلع على المسمى "بن اسماعيل" لقب أبي رغال الثاني، لأن الأول كان اسماً حقيقياً لأكثر خائن في جزيرة العرب، ولم يكتف الناقد بإلحاق الخائن بالخائن على مستوى الاسم واللقب وحسب، بل أمعن في الاستهزاء بهذا الخؤون والسخرية منه، يتجلى ذلك عندما سمي المكان الذي ضم جثته "جحراً"، وبدن "أبي رغال الثاني" في نظره لم يدفن بل دس حتى لكأنه شيئاً نكراً وسوأة عظيمة كان عليها أن تدس بإحكام خشية أن يطلع عليها الناس وهي على صورتها البشعة، ثم إنه راح يتمنى في حسرة كبيرة لو أنه عرف موقعها للوقوف عندها ليكما ينال الجحر حظه من الرجم.

ويستمر الناقد ساخراً من هاته الكائنات التي ظاهرت العدو على وطنها وبني جنسها، وارتضت أن تكون معول هدم في كيان أمتها حيث استبدلت الكرامة بالمهانة، ورامت الشرف في غير عزة، وهل وظيفة محمد إلا تعرية هذه السوءات التي انغrust في أرض طيبة حيث تعهدا الأعداء بالنماء ودسوها بإحكام، ولما استوى سوقها شرع شوكرها في إيذاء الخلق والبلد، إن وظيفة الناقد محمد إبراز ما ترسب في أطوائها من خبث ومكر بالأمة وشرف الوطن الرفيع، إن الناقد "يعلم أن ذلك الكائن المسمى قدور بن غبريط كان عبداً لفرنسا، استخدمته في أقدر المهمات، فكان عينا لها وأذناً ضد إخوانه في الدين والوطن فاستحق ما يستحقه كل خوان أثيم، من لعنة الله - عز وجل - والملائكة والناس أجمعين"³¹ فالشيء الملاحظ من هذا المقتبس؛ أن شناعة الفعل وقبحه دفعت الناقد إلى الانصراف عن السخرية إلى الهجاء، مصرحاً بعيوب الخصم بدلاً عن التلويح والاشعار بها من طرف خفي، وما إن أوشك على إنهاء غرضه هذا؛ حتى انصرف ثانية إلى الدعاء عليه بالهلاك، حيث استنزل عليه لعنات الله والملائكة والناس أجمعين.

ولئن كانت السخرية مفهوماً ينتظم "كل المجال الذي يغطي المصطلحات العربية التالية: الهزل، الاستهزاء، التهكم، الهجاء في معرض المدح، التعريض، التوجيه، القول بالموجب، أسلوب الحكيم، الاستخدام، نفي الشيء بإيجابه، الاتهام (عند البلاغيين)، هذا فضلاً عن كلمة سخرية نفسها، وهي مصطلحات كثيرة تدل على مدى حضور السخرية في التراث البلاغي العربي"³² فإن أكثر الأشكال شيوعاً في الخطاب النقدي عند محمد الهادي الحسني هو الهجاء مع كثير من الاستهزاء والتهكم، وذلك معرض كشفه خيانة خصوم الأمة والبلد وتعرية مساوئهم الجمّة، وكون "السخرية لون من الهجاء ولكن بفارق وهو أن للهجاء لساناً حاداً ومراً، ونحن لا نجد الصراحة الموجودة في السخرية كما نجدها في الهجاء، ومن جهة أخرى؛ الغاية في السخرية هي الاستهزاء من شخص في حالة جعل الشخص أضحوكة مع الآخرين مع الاستحقاق"³³، ومن ثم فإن التصريح بغرض تحقير الخصم والخط من قدره هو ما يلمسه المتلقي في خطاب السخرية لمحمد الهادي الحسني في تناوله لشخصية "قدور بن غبريط" الذي "أنعمت عليه فرنسا في 1925 بلقب "وزير شرفي" كأنها تعوضه عن الشرف الذي باعه بثمن بخس، دراهم معدودة، ثم عين على رأس مسجد باريس حتى هلك في 1954م فما بكت عليه السماء والأرض، ... وبما أن العبد هو صوت سيده؛ فقد كان العبد ابن غبريط أميناً على مصالح فرنسا، بل واشد حرصاً عليها من الفرنسيين أنفسهم، حيث كان يصف دعاة الإسلام الصحيح في باريس بـ"المغرضين" ... لقد أشرب ذلك الكائن، الذي لا ندري من أي شيء خلق، أشرب "حب فرنسا" وكان يفتخر بهذا الحب، ويرفع به خسيسته، وجعل

ذلك الكائن قوله تعالى: "ومن يهن الله فما له من مكرم"³⁴، ويأبى الله العزيز الحكيم إلا أن يبقى هذه الإهانة الصغرى حية في انتظار الإهانة الكبرى -إن شاء الله- لهذا "العبد" الذي رفض تكريم الله -عز وجل- ولهث ك (...). وراء تكريم فرنسا"³⁵، الناقد هنا؛ وينفذ بصيرته ساق صورة لذلك الشقي وهو "يسترد" بعضا من شرفه الذي باعه بعرض قليل، فما لبث أن هلك ذلك الكائن حتى لكأنه لم يكن شيئا مذكورا، بيد أن الناقد وفي غمرة سرده لواقع الحال؛ سرعان ما استدرك على نفسه، وراح ينقب في التاريخ لعله يجد ما يذكره بمفاسد هذا البشر الممسوخ المحول عن سماحة إلى جائحة أتت على الوطن والأمة، لقد ألفتة أمينا على مصالح من اشرب قلبه بحبها، وامتحن العاملة لها يبغي بذلك مكربة وشيئا من كرامة، غير أن الذي أهانه الله أنى له أن يقع على شيء من عزة أو بعض من كرامة؟ ولم يزل الساخر مسلطا سوط نقده على الخائن ابن غبريط، حيث بث الحياة فيما علق به من إهانة وهوان على الناس وللهوان المنتظر أشد وأنكى.

ج- السخرية من الطبقة الحاكمة في بلاد العرب والمسلمين:

مضى يعكف؛ الناقد الساخر محمد الهادي الحسني، مواصلا تعرية عيوب المغضوب عليهم من قبَله، حيث جعل دائرة سخريته تتوسع هذه المرة لإبراز مثالب الطبقة الحاكمة في الوطن العربي، زعم هؤلاء الحكام أنهم رجالا، وما هم برجال كما يوضحه عنوان المقال: "عندما تكونون رجالا"؛ إذ ليس يخفى أن العنوان أضى "سياسة؛ طريقة للنص يتفاوض بموجها مع القارئ؛ فقد غدا متوفرا على نصبة، أي بوصفه نصا منفصلا مرتبطا بالنص الذي يسميه، وفي الوقت ذاته يتمتع باستقلاليته النصية أي يلفت الانتباه إليه"³⁶، فالملتقي بادئ الأمر يدرك أن الناقد باشر يرسل وخزاته المؤذية المؤلمة انطلاقا من عتبة الخطاب، وذلك قبل خوض غمار أعماقه وسبرها، هذا الذي عمد إليه محمد وهو إذ ذاك؛ بإزاء تعرية الطبقة الماسكة بالسلطة في بلاد المسلمين، حيث خلع عليهم كل الصفات خلا قيم الرجولة، كاشفا عن فعالهم المنكرة، إنه يرى هذه الطبقة هي سوءات الأمة.

لقد كشف محمد عن نيته في تعرية هذه الطبقة وإبراز مفاسدها وفضحها على رؤوس الأشهاد، يتجلى مقصده الرامي إلى تبيان حقيقة هذه الكائنات المحولة عندما بادر بهذا العنوان الرهيب، عنوان سلهم معاني الرجولة وقيمها، في حين خلع عليهم بدلا عنها معاني لا توفر لهم أكثر من المهانة والذلة والمسكنة، فالناقد يرى أن ما تتلقاه الأمة من ضربات من قبَل الأعداء المتربصين بها، وأرضها تنقص من أطرافها، وما لحقها من هوان، وأن "الذي جراً إسرائيل على أن تفعل أفعالها هو أنها أدركت أن الرجولة في أمتنا قد فقدت، وما أفقدها هذه الرجولة إلا حكامها، الذين يتشبثون بالكرسي ولو بلغوا من الكبر عتيا، وغاض ماء الحياة من أعضائهم، وذهب أطياب ما فيهم، وبقي أسوأ ما فيهم، وتراهم يكذبون على شعوبهم ويخدعون أنفسهم فيخضبون شعورهم بالسواد، رغم ينطبق عليهم ما قاله أبو العتاهية لأحد الموالاة: "نصفك محجوب ونصفك نائم"، وقد زين لهؤلاء الحكام سوء عملهم "بطانة مد بها الشيطان شطآنه، وحاشية كالمأشية"، لو كان حكامنا متخلقين بخلق الرجولة لما ظنوا أنه ليس في الأمة غيرهم"³⁷، واضح أن الساخر من هاته الطبقة، يتكى في نقده على ثقافته الواسعة، وذلك من خلال حضور نصوص تراثية في خاطبه النقدي الساخر، فتارة يدعم رأيه ببيت شعري، وطورا بمثل سائر، وفي أحيائين

كثرة تلفي التناس مع نصوص شريفة، فهو يؤكد على أنه ما كان للكيان الصهيوني ولا لغيره أن يعيث بأمن البلاد العربية، ويفتك بأبنائها، لو أنه لمس في هاته الأشياء المسماة تجوزا حكاما شيئا من الرجولة، هذه الكائنات الجاثمة على صدور الشعوب العربية بالكذب والتزوير والتدليس غابت عنهم مقومات الحياة، حتى أن ما كانوا يتمتعون به من طيب اندثر وبقي فيهم كل شيء سيء، ولأن لا صلة لهم بالرجولة؛ هم في خداع مستمر، يخدعون أنفسهم بإخفاء معالم الكبر بالسواد.

يقوم الخطاب النقدي الساخر؛ عند محمد مرسي على فكرة قوامها الإصلاح والدعوة إلى الترقى نحو الكمال، وتذكير الناس بمجد الأمة التليد، كما يحذر من خطورة الأوضاع الآخذة في الانحدار والتردي، بفعل سياسات خرقاء لا تؤمن بمبدأ الشورى والتداول على كرسي الحكم، في حين أن منهجها الوحيد للخلود في سدة الحكم وممارسة السلطة؛ هو القهر والتسلط على عيال الله والتدليس والكذب عليهم وبخسهم حقوقهم، فما فتى محمد يذكر هؤلاء الحكام بأن "قيادة الأمم والهيئات ورئاسة الشعوب والجماعات عبء كبير وحمل ثقيل"³⁸ لا يستطيعه المهازيل من الناس؛ والضعاف في الرؤى والتصورات والأفكار، الذين يبذلون كل شيء رجاء البقاء في السلطة وسياسة الناس من دون عطاء وتضحية، ثم راح يجادلهم ساخرا "لو كان حكامنا متخليين بخلق الرجولة لما ظنوا أنه ليس في الأمة غيرهم، ولو كان حكامنا متصفين بصفة الرجولة لما قبلوا أن يقول لهم المنافقون المتملقون: إن النساء لم تلد أمثالكم، وأنه لا يوجد مثلكم في البلاد، ولم يخلق مثلكم في العباد"³⁹ إن الناقد هنا يحتاج هذه الأشياء المسماة حكاما، انطلاقا من الدلائل التي يملكها، وهي دلائل تنفي عنهم قيم الرجولة وصفاتها، ثم شرع يسوق البراهين القوية على صدق ما يرى، إنهم رضوا بأن يحمدا بما لا قبل لهم به، قبلوا مجانية التملق والمدح الزائف، وطابت أنفسهم لذلك.

استطاع الناقد محمد الهادي الحسني؛ تعرية شخصية الحاكم العربي، وإبراز عيوبه التي لا حصر لها، إنها شخصية خشبية توارت خلف الأبهة والفخامة والجلال، وهي صفات جوفاء لا تغني عنهم من الجهل والعي والقعود عن المهمات الكبرى شيئا، إنها صفات لا تخفي ما انطوت عليه هاته المخلوقات من جبن وهوان، هذه الشخصية المتسرلة بما ليس لها أتت عليها ربح أرجعتها سيرتها الأولى، حيث طاف عليها طائف السخرية فأرداها، ذلك أن "حدة أسلوب السخرية أو لينه يتناسب مع درجة السخط في نفس الساخر، فكلما كان أشد سخطا كانت صياغته للسخرية أشد إيلاما، وبالتالي أشد تأثيرا"⁴⁰، هذا ما يللمسه المتلقي في الخطاب النقدي عند محمد الهادي الحسني، حيث تلفه قد احتج على هؤلاء الخصوم بأسلوبه الساخر حتى عراهم وفضح دواخلهم المصابة بداء العي، وانكشفت صورهم المتهاكة للناس، فاستمع إليه إن شئت؛ وهو يخاطبهم موازنا بينهم وبين الإسرائيليين "إن بني إسرائيل أيها الحكام العرب يحكمها رئيس مستقيل، وقد تخلفه أنثى، وهي تفعل ما تشاء، لأن حكامها -السابقين والحاليين- لم يقتلوا الرجولة في شعبيهم، أم أنتم فكل واحد منكم لسان حاله كلسان أخيه في الاستعلاء بغير الحق "ما أريكم إلا ما أرى"⁴¹... إن الرجال الوحيدين الآن في هذه الأمة هم هؤلاء الصامدون في غزة، الذين يواجهون الطائرات والصواريخ بالعزم الشديد، والصبر الجميل، وهم أشد رهبة في قلوب الطغاة البغاة من كل حكامنا الذين لا مجد حازوا ولا بالشرف فازوا"⁴²، استمر الناقد يهزأ هؤلاء الحكام

العرب ساخرا من شخصياتهم وسياساتهم القائمة على المهانة وإذلال الشعوب العربية المستضعفة، ولم يزل يحاججهم بأقوى الدلائل والبراهين التي تدينهم أحياء وتلعنهم أموتا، حيث وازن بينهم وبين حكام إسرائيل، وهو كيان على علاقاته وفاسده -إن وجوده مفسدة- إلا أن من يحكموه لم يساهموا أبدا في قتل قيم الرجولة في مجتمعهم اليهودي، وأن الحاكم عندهم غير متمسك بالسلطة، فلعله يرحل أو يترحل عنها مستخلفا مكانه امرأة، والناقد إذ يوازن بين الاسرائيليين والحكام العرب إنما لتكون سخريته أشد أذية وإيلاما، ثم إن الموازنة الكبرى التي عقدها الناقد بين هؤلاء الأشياء والاسرائيليين من جهة ومن جهة أخرى أولئك المرابطون الصامدون في غزة، فهو يسوق النبأ الذي لا مزية فيه أن من يتمتع بالرجولة وقيمها الشامخة هم وحدهم على سبيل الحصر، إنها مقصورة عليهم تلقاء ما ينتجون من إبداعات وما أبانوا عن تحديات، إن الرجولة لا ينازعهم فيها أحد من الناس، بيد أن أقصى ما استطاع أن يحققه أصحاب "الأبهة والفخامة والسمو" هو تمثيل سيرة جبار عنيد، حكى عنه القرآن العظيم، استمرأ العلو في الأرض واستعبد العباد، ولسان حاله يقول: "ما أريكم إلا ما أرى".

4. خاتمة:

يتفجر في مفهوم السخرية بوصفه مصطلحا نقديا؛ معنى الاستهزاء والتهكم والضحك والهجاء في معرض المدح، بحيث تعجى ألفاظ السخرة مكتظة بالمعاني والدلالات المتناقضة، فالظاهر منها الملاحاة والطرفة والعدوبة والتفكه، وباطنها المرارة والعذاب والألم والوجع، والسخرية منى نقدي يتخذها الساخر وسيلة يجلي خلالها فداحة أخطاء المذنبين في حق المجمع ومساوئهم الجممة، ويبصرهم بعيوبهم قصد التقويم والاصلاح، هذا ما يلفه المتلقي في الخطاب النقدي لمحمد الهادي الحسني، بيد أن السخرية عنده؛ لم تتخذ ناحية واحدة، بل تعددت اتجاهاتها، مما جعله يفرغ مقاصده الاصلاحية لتشمل جل مناحي الحياة ومجالاتها، ولعل أبرز النتائج التي خلص إليها البحث؛ التالي:

1- تميزت سخرية محمد الهادي الحسني، في خطابه النقدي، بخاصية الاصلاح والتقويم، والدعوة إلى تعديل السلوك وترشيد الفعال، بحيث لم تكن السخرية عنده لذاتها، بل كانت تهدف إلى نشر القيم الصحيحة والتحريض على الثبات عليها.

2- كان للنصوص الشريفة والتراثية حضور قوي في الخطاب النقدي الساخر لمحمد، مما يؤكد على اصلاحية سخريته ومرجعياته الثقافية والفكرية.

3- طغى الهجاء والتهكم والاستهزاء على الأغراض الأخرى في سخرية محمد الهادي الحسني وهو يباشر وظيفته النقدية، وذلك بهدف إيلام المذنبين لعلمهم يهتدون إلى القيم السمحة، أو يرتدعون متأثرين بسهام الفضح والتعرية.

4- تنوعت اتجاهات السخرية عند الناقد محمد الهادي الحسني، حيث غطت معظم مجالات الحياة الحيوية، فكان للسياسة نصيب فيها، وللتربية والتعليم حظ كبير، والثقافة هي الأخرى نالت كفلا عظيما من اهتماماته

النقدية، والأحوال الشخصية وقضايا الحكم؛ شدد انتباهه وراحت تنال من جهده النقدي فكان أن توقف عندها في كثير من المحطات.

5- غلب على سخريّة محمد الهادي الحسني في نقده الساخر؛ الطابع الحجاجي، فهو لم يأل جهداً في سبيل إظهار الحق وتبيينه للناس، وتعريّة خصوم القيم الانسانية وقضايا الحياة، وفضحهم على رؤوس الأشهاد، مستنداً في ذلك إلى الدلائل والبراهين المنطقية الدامغة، التي في نظره؛ لا يرتقي إليها الشك والجدل.

هوامش البحث :

- ¹ - ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (محمد فؤاد عبد الباقي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص736.
- ² - سورة الأنعام: الآية10.
- ³ - محمد الطاهر بن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، ج7، ص147.
- ⁴ - سورة المؤمنون: الآية110.
- ⁵ - سورة المؤمنون: الآية110.
- ⁶ - أحمد بن يوسف المعروف بالسمين الحلبي: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، دار القلم، دمشق، ج8، ص371.
- ⁷ - سورة المطففين: الآية28، 29، 30، 31، 32، 33، 34.
- ⁸ - الزمخشري: جار الله أبي القاسم محمود بن عمر: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق وتعليق ودراسة: عادل أحمد عبد الموجود- علي محمد معوض، مكتبة العبيكان، الرياض، ط1، (1998)، ص339.
- ⁹ - سورة الصفات: الآية12، 13، 14.
- ¹⁰ - الألوسي: أبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي: روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج23، ص76.
- ¹¹ - الزمخشري: الكشف، ج5، ص204.
- ¹² - الجوهري: اسماعيل بن حماد، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين بيروت، ط4، (1990)، ج2، ص680، مادة: (س.خ.ر).
- ¹³ - الزمخشري: أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997، ج1، ص443، مادة: (س.خ.ر).
- ¹⁴ - ابن منظور: عبد الله محمد بن المكرم بن أبي الحسن بن أحمد الأنصاري الخزرجي: لسان العرب: تح: عبد الله الكبير، محمد أحمد حسب الله، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، مج3، ج22، ص1963، مادة: (س.خ.ر).
- ¹⁵ - مجدي وهبة؛ كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط2 (1984)، ص198.
- ¹⁶ - جبور عبد النور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2 (1984)، ص138.
- ¹⁷ - المناوي: عبد الرؤوف بن المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف، تح: عبد الحميد صالح حمدان، عام الكتب، القاهرة، ط1 (1990)، ص192.
- ¹⁸ - مجدي وهبة، كامل المهندس: معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ص138.

- ¹⁹ - فاطمة حسين العفيف: الجانب النفسي للسخرية في الشعر العربي المعاصر: محمد الماغوط ومحمود درويش، واحد مطر، نماذج، مجلة دراسات العلوم الانسانية والاجتماعية، المجلد 43، العدد 3، 2016، ص 2438.
- ²⁰ - سورة النبأ الآية 1
- ²¹ - محمد الهادي الحسني: الشيء من مصدره لا يستغرب، المكتبة الجزائرية الشاملة، ص 1، www.shamela-dz.net
- ²² - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، إفريقيا الشرق، الرباط، ط 2، ص 88.
- ²³ - أبو القاسم رادفر: السخرية؛ لغتها، أشكالها ودوافعها، ديوان العرب؛ منبر حر للثقافة والفكر والأدب، ص 3، 29 يناير 2011، <https://www.diwanalarab.com/spip.php?article26852>
- ²⁴ - محمد الهادي الحسني: مادة الرجولة، المكتبة الجزائرية الشاملة، 11 ديسمبر 2017، www.shamela-dz.net
- ²⁵ - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 100.
- ²⁶ - محمد الهادي الحسني: ولو كان "ابن داود"، ص 2، المكتبة الجزائرية الشاملة، 08 سبتمبر 2017، www.shamela-dz.net
- ²⁷ - أبو القاسم رادفر: السخرية؛ لغتها، أشكالها ودوافعها، ديوان العرب؛ منبر حر للثقافة والفكر والأدب، ص 4، 29 كانون الثاني (يناير) 2011، <https://www.diwanalarab.com/spip.php?article26852>
- ²⁸ - عبد الحليم حفي: التصوير الساخر في القرآن الكريم، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص 12.
- ²⁹ - محمد الهادي الحسني: الجنرال ابن غبريط، ص 1، المكتبة الجزائرية الشاملة، 08 سبتمبر 2017، www.shamela-dz.net
- ³⁰ - م.س
- ³¹ - م.س
- ³² - محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص 109-110.
- ³³ - شمسي واقف زاده: الأدب الساخر؛ أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، مجلة دراسات الأدب المعاصر، العدد 12، السنة الثالثة، جامعة آزاد الإسلامية، إيران 1433هـ، ص 9.
- ³⁴ - سورة الحج: الآية 18.
- ³⁵ - محمد الهادي الحسني: الجنرال ابن غبريط، ص 2، المكتبة الجزائرية الشاملة، 08 سبتمبر 2017، www.shamela-dz.net
- ³⁶ - خالد حسن: شؤون العلامة من التشفير إلى التأويل، دار التكوين، دمشق، ط 1، (2008)، ص 99.
- ³⁷ - محمد الهادي الحسني: عندما تكونون رجالا، ص 2، المكتبة الجزائرية الشاملة، 08 سبتمبر 2017، www.shamela-dz.net
- ³⁸ - محمد الهادي الحسني: القيادة تضحية، ص 1، المكتبة الجزائرية الشاملة، 02 مارس 2019، www.shamela-dz.net
- ³⁹ - محمد الهادي الحسني: عندما تكونون رجالا، ص 2، المكتبة الجزائرية الشاملة، 08 سبتمبر 2017، www.shamela-dz.net
- ⁴⁰ - عبد الحليم حفي: التصوير الساخر في القرآن الكريم، ص 27.
- ⁴¹ - سورة القصص: الآية
- ⁴² - محمد الهادي الحسني: عندما تكونون رجالا، ص 3، المكتبة الجزائرية الشاملة، 08 سبتمبر 2017، www.shamela-dz.net